

قراءة في كتاب تعليم المتعلم طريق التعليم

مع كتاب تعليم المتعلم طريق التعليم، تأليف: الإمام برهان الإسلام الزرنوجي (رحمه الله)، الطبعة الأولى: 1431 هـ / 2010 م.

فصل في وقت التحصيل:

قيل: وَقْتُ التَّعَلُّمِ مِنَ الْمَهْدِ إِلَى اللَّحْدِ، وَأَفْضَلُ الْأَوْقَاتِ شَرْخُ الشَّيْبَانِ، وَقْتُ السَّحَرِ، وَمَا بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ.

وَيَنْبَغِي لِطَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَسْتَغْرِقَ جَمِيعَ أَوْقَاتِهِ، فَإِذَا مَلَكَ مِنْ عِلْمٍ، يَشْتَغِلُ بِعِلْمٍ آخَرَ، وَكَانَ ابْنُ عَبْدِاسِ (رضي الله عنه) إِذَا مَلَكَ مِنْ عِلْمِ الْكَلَامِ، يَقُولُ: هَاتُوا دِيُونََ الشُّعْرَاءِ، وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ (رحمه الله) لَا يَنْتَامُ اللَّيْلُ، وَكَانَ يَضَعُ عِنْدَهُ الدَّفَاتِرَ، وَكَانَ إِذَا مَلَكَ مِنْ نَوْعٍ يَنْطُرُ فِي نَوْعٍ آخَرَ.

فصل في الشفقة والنصيحة:

يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ صَاحِبُ الْعِلْمِ مُشْفِقًا نَاصِحًا غَيْرَ حَاسِدٍ، فَالْحَسَدُ يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، وَكَانَ أَسْتَاذُنَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ بُرْهَانُ الدِّينِ (رحمه الله) يَقُولُ: إِنَّ ابْنَ الْعُلَمَاءِ يَكُونُ عَالِمًا؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ يُرِيدُونَ أَنْ تَكُونُ تَلَامِيذُهُ عُلَمَاءًا، فَيَبْرِكُ اعْتِقَادُهُمْ وَشَفَقَتُهُمْ يَكُونُ ابْنُهُ عَالِمًا.

وَكَانَ يُحْكِي أَنَّ الصَّادِرَ الْأَجَلَ بُرْهَانَ الْأَثِمَةِ (رحمه الله) جَعَلَ وَقْتُ السَّبَقِ لِابْنَيْهِ الصَّادِرِ الشَّهِيدِ حُسَامِ الدِّينِ، وَالصَّادِرِ السَّعِيدِ تَاجِ الدِّينِ (رحمه الله) وَقْتُ الضَّحْوَةِ الْكُبْرَى بَعْدَ جَمِيعِ الْأَسْبَاقِ، وَكَانَا يَقُولَانِ: طَبِيعَتُنَا تَكِلُ وَتَمَلُّ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَقَالَ أَبُوهُمَا (رحمه الله)

□) : إِنَّ الْغُرَبَاءَ وَالْأَوْلَادَ الْكُبِرَاءَ يَأْتُوْنَنِي مِنَ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ أُقَدِّمَ أَسْبَابَهُمْ، فَبِبِرْكَةِ شَفَقَتِهِ تَفْوِّقَ ابْنَاهُ عَلَى أَكْثَرِ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْأَرْضِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ .

وَيَنْبَغِي أَسْـَلاَ يُنْزَعُ أَحَدًا وَلَا يُخَاصِمَهُ؛ لِأَنَّهُ يُضَيِّعُ أَوْ قَاتِلُهُ، قَبْلَ: الْمُحْسِنُ سَيُجْزَى بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءُ سَيَكْفِيهِ مَسَاوِيَهُ، أَنُشِدَنِي الشَّيْخُ الْإِمَامُ ركن الإسلام مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الْمُعَرُّوفُ بِإِمَامِ خَوَاهِرِ زَادَةِ الْمُفْتِي (رحمه □) قَالَ: أَنُشِدَنِي سُلْطَانُ الشَّرِيعَةِ يُوسُفُ الْهَمَدَانِيُّ (رحمه □):

وَلَا تَجْزِ إِنْ سَانَا عَلَى سُوءٍ فَعَلِمَهُ... سَيَكْفِيهِ مَا فِيهِ وَمَا هُوَ فَعَلِمَهُ

وَقِيلَ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَرْغَمَ أَنْفَ عَدُوِّهِ، فَلْيُكْرِرْ هَذَا الشَّعْرَ وَأُنْشِدَتْ:

إِذَا شِئْتَ أَنْ تُلْقِيَ عَدُوَّكَ رَاغِمًا... وَتَقْتُلَهُ غَمًّا وَتَحْرِقَهُ هَمًّا

فَرُمَ لِلْعُزْلَا وَازْدَدَ مِنَ الْعِلْمِ إِنََّّهُ... مَنْ اِزْدَادَ عِلْمًا زَادَ حَاسِدُهُ غَمًا

وَعَلَيْكَ أَنْ تَشْتَغَلَ بِمَصَالِحِ نَفْسِكَ لَا بِقَهْرِ عَدُوِّكَ، فَإِذَا قُمْتَ بِمَصَالِحِ نَفْسِكَ تَضَمَّنَ ذَلِكَ قَهْرَ عَدُوِّكَ، وَإِيَّاكَ وَالْمُعَادَاةَ؛ فَإِنَّهَا تَفْضَحُكَ وَتُضَيِّعُ أَوْ قَاتِلُكَ، وَعَلَيْكَ بِالتَّحَوُّلِ لَا سِيَّمًا مِنَ السُّفَهَاءِ، قَالَ عِيْسَى بْنُ مَرْيَمَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ (وآله) -: احْتَمِلُوا مِنَ السَّفِيهِ وَاحِدَةً؛ كَيْ تَرْتَبِحُوا عَشْرًا، وَأُنْشِدَتْ لِبَعْضِهِمْ:

بَلَاوَتْ النَّاسَ فَرَنًْا بَعْدَ قَرْنٍ... فَلَمْ أَرَ غَيْرَ خِتَالٍ وَقَتَالِي

وَلَمْ أَرَ فِي الْخُطُوبِ أَشَدَّ وَقَعًا... وَأَصْعَبَ مِنْ مُعَادَاةِ الرَّجَالِ

وَذُقْتُ مَرَارَةَ الْأَشْيَاءِ طُرًّا... فَمَا شَيْءٌ أَمَرَ مِنَ السُّؤَالِ

وَأَيْسَّكَ أَنْ تَطْنَنَّ شَرًّا بِالْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنَّهُ مِنْشَأُ الْعَدَاوَةِ، وَلَا يَحِلُّ ذَلِكَ؛
لِقَوْلِهِ (ص) طُنُّوا بِالْمُؤْمِنِينَ خَيْرًا، وَإِنَّهُمَا يَنْشَأُ ذَلِكَ مِنْ حُبِّهِ النِّيةِ
وسوء السَّريَّةِ، كما قال أبو الطَّيِّبِ:

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتِ طُنُوءُهُ... وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُمِ

وَعَادَى مُحِبِّهِ بِقَوْلِ عُدَاتِهِ... وَأَصْبَحَ فِي لَيْلٍ مِنَ الشَّكِّ مُظْلِمِ

وَأَنْشَدْتُ لِبِعْعِضِهِمْ:

تَنْجَ عَنِ الْفَقْدِ وَلَا تُرِدْهُ... وَمَنْ أَوْلَيْتَهُ حَسَنًا فَرِدْهُ

سَتُكْفَى مِنْ عَدُوِّكَ كُلِّ كَيْدٍ... إِذَا كَادَ الْعَدُوُّ فَلَا تَكْذِبْ

وَأَنْشَدْتُ لِلشَّيْخِ الْعَمِيدِ أَبِي الْفَتْحِ الْبُسْتَمِي (رحمه الله):

ذُو الْعَقْلِ لَا يَسْلَمُ مِنْ جَاهِلٍ... يَسُومُهُ ظُلْمًا وَإِعْنَاتًا

فَلَا يَحْتَرِ السَّلَامَ عَلَيَّ حَرْبُهُ... وَلَيْلَا زَمِ الْإِنصَاتِ وَإِنْ صَاتَا

فصل في الاستفادة:

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَنَّ طَالِبُ الْعِلْمِ مُسْتَفِيدًا فِي كُلِّ وَقْتٍ، حَتَّى يَحْصُلَ
لَهُ الْفَضْلُ، وَطَرِيقُ الْإِسْتِفَادَةِ أَنْ يَكُونَنَّ مَعَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَحْبَرَةٌ،
حَتَّى يَكْتُوبَ مَا يَسْمَعُ مِنَ الْفَوَائِدِ، فَقَدْ قِيلَ: مَنْ حَفِظَ قُرْآنًا، وَمَنْ
كَتَبَ شَيْئًا قُرْآنًا، وَقِيلَ: الْعِلْمُ مَا يُؤْخَذُ مِنَ أَفْوَاهِ الرِّجَالِ؛ لِأَنََّّهُمْ
يَحْفَظُونَ أَحْسَنَ مَا يَسْمَعُونَ، وَيَقُولُونَ أَحْسَنَ مَا يَحْفَظُونَ.

وَسَمِعْتُ الشَّيْخَ الإِمَامَ الْأَدِيبَ الْأُسْتَاذَ زَيْنَ الْإِسْلَامِ الْمَعْرُوفَ بِالْأَدْرِيبِ
 الْمُخْتَارِ يَقُولُ: قَالَ هَلَالُ بْنُ يَسَارٍ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ (ص) يَقُولُ
 لِأَصْحَابِهِ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَعِدْ لِي: مَا
 قُلْتَ لَهُمْ، فَقَالَ لِي: هَلْ مَعَكَ مَحَبَرَةٌ؟ فَقُلْتُ: مَا مَعِيَ مَحَبَرَةٌ، فَقَالَ:
 يَا هَلَالُ! لَا تُفَارِقِ الْمُحَبَرَةَ؛ فَإِنَّ الْخَيْرَ فِيهَا، وَفِي أَهْلِهَا إِلَيَّ يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ.

وَوَصَّى الصَّادِقُ الشَّهِيدُ حُسَامُ بْنُ ابْنَةِ شَمْسِ الدِّينِ أَنْ يَحْفَظَ كُلَّ
 يَوْمٍ شَيْئًا يَسِيرًا مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ؛ فَإِنَّهُ عَنْ قَرِيبٍ يَكُونُ
 كَثِيرًا، وَاشْتَرَى عِصَامُ بْنُ يُوسُفَ فَلَمَّا بَدَأَ يَنْتَهِ؛ لِيَكْتُوبَ مَا سَمِعَهُ فِي
 الْحَالِ، فَالْعُمُرُ قَصِيرُ وَالْعِلْمُ كَثِيرُ، فَيَنْبَغِي أَلَّا يُضَيِّعَ الْأَوْقَاتَ
 وَالسَّاعَاتِ، وَيَغْتَنِمَ اللَّيَالِي وَالْخَلَوَاتِ.

عَنْ يَحْيَى بْنِ مُعَاذٍ الرَّازِيِّ أَنَّهُ قَالَ: اللَّيْلُ طَوِيلٌ وَلَا تُقَصِّرْهُ
 بِمَنَامِكَ، وَالنَّهَارُ مُضِيٌّ وَلَا تُكَذِّرْهُ بِأَنَامِكَ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَغْتَنِمَ
 الشَّيْخُ وَيَسْتَفِيدَ مِنْهُمْ، وَلَيْسَ كُلُّ مَا قَاتَ يُدْرِكُ، كَمَا قَالَ
 الْأُسْتَاذُ نَاشِئُ الْإِسْلَامِ (رحمه الله): كَمْ مِنْ شَيْءٍ كَبِيرٍ أَدْرَكَتْهُ وَمَا
 اسْتَحْبَرَتْهُ.

وَأَقُولُ عَلَى هَذَا الْقَوَاتِ مُنْشِئًا هَذَا الْبَيْتَ:

لَهْفِي عَلَى قَوَاتِ النَّسْلِاقِيْ لَهُفًا... مَا كُلُّ مَا قَاتَ وَيَفْنَى يُلْفَى.

قَالَ عَلِيُّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَجْهَهُ) (ع): إِذَا كُنْتَ فِي أَمْرٍ فَكُنْ فِيهِ، وَكَفَى
 بِالْإِعْرَاضِ عَنْ عِلْمِ اللَّهِ خِزْيًا وَخَسَارًا، وَاسْتَغِذْ بِاللَّهِ مِنْهُ لَيْلًا
 وَنَهَارًا.

وَلَا بُدَّ لِمُطَالِبِ الْعِلْمِ مِنْ تَحْمُلِ الْمَشَقَّةِ، وَالْمَذَلَّةِ فِي طَلَبِ
 الْعِلْمِ، وَالتَّمَلُّقِ مَذْمُومٌ إِلَّا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ
 التَّمَلُّقِ لِلْأُسْتَاذِ وَالشَّرَكَاءِ وَغَيْرِهِمْ؛ لِإِسْتِفَادَةِ مِنْهُمْ، فَيَل:

الْعِلْمُ عِزٌّ لَا ذُلٌّ فِيهِ، وَلَا يُدْرِكُ إِلَّا بِالذُّلِّ لَا عِزٌّ فِيهِ، وَقَالَ
الْقَائِلُ:

أَرَى لَكَ زَفْسًا نَشْتَهِي أَنْ تُعِزَّهَا... فَلَسْتُ تَنَالُ الْعِزَّ حَتَّى تُذِلَّهَا